

ألف ليلة وليلة

حكاية الجواري المختلفة الألوان وما وقع بينهن من المحاوره

## حكاية الجوّاري المختلفة الألوان وما وقع بينهن من المحاورّة

ومما يحكى أن أمير المؤمنين المأمون جلس يوماً من الأيام في قصره وأحضر رؤساء دولته وأكابر مملكته جميعاً وكذلك أحضر الشعراء والندماء بين يديه، وكان من جملة ندمائه نديم يسمى محمد البصري فالتفت إليه المأمون وقال له: يا محمد أريد منك في هذه الساعة أن تحدثني بشيء ما سمعته قط. قال له: يا أمير المؤمنين تريد أحدثك بحديث سمعته بأذني أو بأمر عابنته ببصري فقال المأمون: حدثني يا محمد بالأغرب منهما، فقال: اعلم يا أمير المؤمنين أنه كان في الأيام الماضية رجل من أرباب النعم وكان موطنه باليمن، ثم إنه ارتحل من اليمن إلى مدينة بغداد هذه فطاب له مسكنها فنقل أهله وماله وعياله وكان له ست جوار كانهن الأقمار الأولى بيضاء والثانية سمراء والثالثة سمينة والرابعة هزيلة والخامسة صفراء والسادسة سوداء وكن حسان الوجوه كاملات الأدب عارفات بصناعة الغناء وآلات الطرب، فاتفق أنه أحضر هؤلاء الجوّاري بين يديه يوماً من الأيام وطلب الطعام والدمام فأكلوا وشربوا وتلذذوا وطربوا ثم ملأ الكأس وأخذ في دبه وأشار للجارية البيضاء وقال لها: يا وجه الهلال أسمعينا من لذيذ المقال فأخذت العود وأصلحته ورجعت عليه الألحان حتى رقص المكان ثم أطربت بالنغمات وأنشدت هذه الأبيات:

لي حبيب خياله نصب عيني	واسمه في جوارحي مكنون
إن تذكرته فكلي قلوب	أو تأملته فكلي عيون
قال لي عاذلي أتسلو هواه	قلت ما لا يكون كيف يكون
يا عاذلي امض عني ودعني	لا تهون على ما لا يهون

فطرب مولاهن وشرب قدحه وسقى الجوّاري ثم ملأ الكأس وأخذ في يده وأشار إلى الجارية وقال لها: يا نورالمقباس وطيبة الأنفاس أسمعينا صوتك الحسن الذي من سمعه افتتن فأخذت العود ورجعت عليه اللحان حتى طرب المكان وأخذت القلوب باللفتات وأنشدت هذه الأبيات:

وحياة وجهك لا أحب سواكا	حتى أموت ولا أخون هواكا
يا بدر تم بالجميل مبرقعا	كل الملاح تسير تحت لواكا
أنت الذي فقت الملاح لطافة	والله رب العالمين حباكا

فطرب مولاهن وشرب كأسه وسقى الجوّاري ثم ملأ القدح وأخذ في يده وأشار إلى الجارية السمينة وأمرها بالغناء وتقليب الأهواء فأخذت العود وضربت عليه ضرباً يذهب الحشرات وأنشدت هذه الأبيات:

إن صح منك الرضا يا من هو الطلب	فلا أبالي بكل الناس إن غضبوا
وإن تبدي محياك الجميل فلم	أعبأ بكل ملوك الأرض إن حجبا
قصدي رضاك من الدنيا بأجمعها	يا من إليه جميع الحسن ينتسب

فطرب مولاهن وأخذ الكأس وسقى الجوّاري، ثم ملأ الكأس وأخذ بيده وأشار إلى الجارية الهزيلة وقال: يا حوراء الجنان أسمعينا الألفاظ الحسان فأخذت العود وأصلحته ورجعت عليه الألحان وأنشدت هذين البيتين:

ألا في سبيل الله ما حل بي منكما	بصدكما حيث لا أصبر عنكما
إلا حاكم في الحب يحكم بيننا	فياخذ لي حقي وينصفني منكما

فطرب مولاهن وشرب القدح وأخذت بيده وأشار إلى الجارية الصفراء وقال: يا شمس أسمعينا من لطيف الأشعار، فأخذت العود عليه أحسن الضربات وأنشدت هذه الأبيات:

لي حبيب إذا ظهرت إليه	سل سيفاً علي من مقاتيه
أخذ الله بعض حقي منه	إذ جفاني ومهجتي في يديه
كلما قالت يا فؤادي دعه	لا يميل الفؤاد إلا إليه

هو سؤلي من الأنام ولكن

حسدنتي عين الزمان عليه

فطرب مولاهن وشرب وسقى الجواري، ثم ملأ الكأس وأخذه في يده وأشار إلى الجارية السوداء وقال: يا سوداء العينين أسمعينا ولو كلمتين فأخذت العود وأصلحته وشدت أوتاره وضربت عليه عدة ضربات ثم رجعت إلى الطريقة الأولى وأطربت بالنغمات وأنشدت هذه الأبيات:

ألا يا عين بالعبرات جودي	فوجدي قد عدت به وجودي
أكابد كل وجدي من حبيب	ألفت به ويشمت بي حسودي
وتمنعني العوازل ورد خد	ولي قلب يحن إلى الورود
لقد دارت هناك كؤوس راع	بأفراح لذي ضرب وعود
ووافاني الحبيب فهمت فيه	وأشرق بالوفا نجم السعود
تصدى للصدود بغير ذنب	وهل شيء أمر من الصدود
وفي وجناته ورد جني	فيا لله من ورد الخدود
فلو أن السجود يحل شرعاً	لغير الله كان له سجودي

ثم بعد ذلك قامت الجواري وقيلن الأرض بين يدي مولاهن وقلن له: أنصف بيننا يا سيدنا، فنظر مولاهن إلى حسنهن وجمالهن واختلاف ألوانهن فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال لهن: ما منكن إلا وقد قرأت القرآن وتعلمت الألحان وعرفت أخبار المتقدمين واطلعت على سير الأمم الماضيين وقد اشتهدت أن تقوم كل واحدة منكن وتشير بيدها إلى ضررتها يعني تشير البيضاء إلى السوداء والسمينة إلى الهزيلة والصفراء إلى السوداء وتمدح كل واحدة منكن نفسها وتذم ضررتها ثم تقوم ضررتها وتقبل معها مثلها ولكن يكون ذلك بدليل من القرآن الشريف وشيء من الأخبار والأشعار لننظر أدبكن وحسن أفاضكن، فقلن سمعاً وطاعة.

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة السادسة والسبعين بعد الثلاثمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الرجل اليمني قالت له جواريه: سمعاً وطاعة، ثم قامت أولاهن وهي البيضاء وأشارت إلى السوداء وقالت لها: ويحك يا سوداء، قد ورد أن البياض قال أنا النور اللامع أنا البدر الطالع لوني ظاهر وفي حسني قال الشاعر:

بيضاء مصقولة الخدين ناعمة	كانها لؤلؤة في الحسن مكنون
فقدها ألف يز هو ومبسمها	ميم وحاجبها من فوقه نون
كأن ألحاظها نبل وحاجبها	قوس على أنه بالموت مقرون
بالخد والقذ إن تبدو فوجنتها	ورد وآس وريحان ونسرين
والغصن بعهد في البستان مغرسة	وغصن قدك كم فيه بساتين

فلوني مثل النهار الهني والزهر الجني والكوكب الدري، وقد قال الله في كتابه العزيز لنبيه موسى عليه السلام: وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء، وقال الله تعالى: وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون، فلوني آية وجمالي غاية وحسني نهاية وعلى مثلي يحسن الملبوس وإليه تميل النفوس، وفي البياض فضائل كثيرة منها أن الثلج ينزل من السماء وقد ورد أن أحسن الألوان البياض، ويفتخر المسلمون بالعمائم البيضاء، ولو ذهبت أذكر ما فيه من المديح لطال الشرح ولكن ما قل وكفى خير مما كثر وما وفى، وسوف أبتدي بدمك يا سوداء يا لون المداد وهباب الحداد ووجه الغراب المفروق بين الأحباب، وفي المثل يقول القائل: كيف يوجد أسود عاقل.

فقال لها سيدها: اجلسي ففي هذا القدر كفاية فقد أسرفت، ثم أشار إلى السوداء فقامت وأشارت إلى البيضاء وقالت: أما علمت أنه ورد في القرآن المنزل على نبي الله المرسل قوله تعالى: والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى، ولولا أن الليل أجل لما أقسم الله به وقدمه على النهار وقبلته أولو البصائر والأبصار، أما علمت أن السوداء زينة الشباب، فإذا نزل المشيب ذهبت اللذات وأوقات الممات ولو لم يكن أجل الأشياء ما جعله الله في حبة القلب والناظر، وام أحسن قول الشاعر:

لون الشباب وحب القلب والحدق  
إني من المشيب والأكفان في فرق

لم أعشق السمر إلا من حيازتهم  
ولا سلوت بياض البيض عن غلط

وقول الآخر:

أولى بعشقي وأحق  
و البياض في لون البهق

السمر دون البياض هم  
السمر في لون اللمي

وقول الآخر:

مثل العيون تحص بالأضواء  
أصل الجنون يكون بالسوداء  
لولا ما قمر أتى بضياء

سوداء ببيضاء الفعال كأنها  
أنا إن جننت بحبها لا تعجبوا  
فكأن لوني في الديق غيب

وأيضاً فلا يحسن اجتماع الأحباب إلا بالليل فيكفيك هذا الفضل والنيل فما ستر الأحباب عن الواشين واللوام مثل  
سواد الظلام، ولا خوفهم من الإفتضاح مثل بياض الصبح، فكم للسواد من مآثر وما أحسن قول الشاعر:

وأنتني وبياض الصبح يغري بي

أزورهم وسواد الليل يشفع لي

وقول الآخر:

وقد سترتنا من دجاء ذوائب  
فقلت له إن المجوس كواذب

وكم ليلة بات الحبيب مؤانسني  
فلما بدا نور الصباح أخافني

ولو ذهبت أذكر في السواد من المدح لطلال الشرح ولكن ما قل وكفى خير مما كثر وما وفى وأما أنت يا بيضاء  
فلونك لون البرص ووصالك من الغصص وقد ورد أن البرد والزمهرير في جهنم لعذاب أهل النكير ومن  
فضيلة السواد أن منه المواد الذي يكتب به كلام الله ولولا سواد المسك والعنبر ما كان الطيب يحمل للملوك ولا  
يذكر وكم من للسواد من مفاخر وما أحسن قول الشاعر:

وإن بياض الجير حمل بدرهم  
وإن سواد العين يرمي بأسهم

ألم تر أن المسك يعظم قدره  
وغن بياض العين يقبح بالفتى

فقال لها سيدها: اجلسي ففي هذا القدر كفاية فجلست ثم أشار إلى السمينة فقامت. وأدرك شهرزاد الصباح  
فسكنت عن الكلام المباح.

وفي الليلة السابعة والسبعين بعد الثلاثمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن اليمني سيد الجواري أشار إلى  
الجارية السمينة فقامت وأشارت بيدها إلى الهزيمة وكشفت سيقانها ومعاصمها وكشفت عن بطنها فبان طياته  
وظهر تدوير سرتها ثم ليست قميصاً رفيعاً فبان منه جميع بدنها وقالت: الحمد لله الذي خلقتني فأحسن صورتي  
وسموني وشبهني بالأغصان وزاد من حسني وبهجتي فله الحمد على ما أولاني وشرقني في كتابه العزيز فقال  
تعالى: وجاء بعجل سمين وجعلني كالبيستان المشتمل على خوخ ورمان واهل المدن يشتهون الطير السمين  
فيأكلون منه ولا يحبون طيراً هزياً وبنو آدم يشتهون اللحم السمين ويأكلونه وكم للسمين من مفاخر وما أحسن  
قول الشاعر:

وهل تطيق وداعاً أيها الرجل  
مشي السمينة عيب ولا ملل

ودع حبيبك إن الركب مرتحل  
كأن مشيتها في بيت جاريتها

وما رأيت أحداً يقف على الجزار إلا ويطلب منه اللحم السمين وقالت الحكماء اللذة في ثلاثة أشياء أكل اللحم والركوب على اللحم ودخول اللحم في اللحم وأما أنت يا رفيعة فسيقانك كسيقان العصفور ومحرك التنور وأنت خشبة المسلوب ولحم المعيوب وليس فيك شيء يسر خاطر كما قال فيك الشاعر:

أعوذ بالله من أشياء تحوجني  
في كل عضو لها قرن يناطحني  
إلى مضاجعة كالدلك بالمسد  
عند المنام فأمسي وهي الجلد

فقال لها سيدها اجلسي ففي هذا القدر كفاية فجلست ثم أشار إلى الهزيمة فقامت كأنها غصن بان أو قضيب خيزران أو عود ريحان وقالت: الحمد لله الذي خلقني فأحسنني وجعل وصلي غاية المطلوب وشبهني بالغصن الذي تميل إليه القلوب فإن قمت خفيفة وإن جلست جلست ظريفة فأنا خفيفة الروح عند المزاح طيبة النفس من الإرتياح وما رأيت أحداً يصف حبيبه فقال حبيب قدر الفيل ولا مثل الجبل العريض الطويل وإنما حبيبي له قد أهيف وقوام مهفوف فاليسير من الطعام يكفيني والقليل من الماء يرويني نفسي خفيف ومزاجي ظريف فأنا أنشط من العصفور وأخف حركة من الزرزور ووصلني منية الراغب ونزهة الطالب وأنا مليئة القوام حسنة الإبتسام كأني غصن بان أو قضيب خيزران أو عود ريحان وليس لي في الجمال مماثل كما قال في الشاعر:

شبهت قدك بالقضيب  
وغدوت خلفك هائماً  
وجعلت شكلك من نصيبي  
خوفاً عليك من الرقيب

وفي مثلي تهيم العشاق ويتوله المشتاق وإن جذبني حبيبي انجذبت إليه وإن استمانني ملئت له لا عليه وها أنت يا سمينة البدن فإن أكلك أكل للفيل ولا يشبعك كثير ولا قليل وعند الإجتماع لا يستريح معك خليل ولا يوجد لراحته معك سبيل فكبر بطنك يمنعه من جماعك وعند التمكن من فرجك يمنعه من غلظ أفخاذك أي شيء في غلظك من الملاحظة أو في فضاظتك من اللطف والسماحة ولا يلبق باللحم السمين غير الذبح وليس فيه شيء من موجبات المدح إن مازحك أحد غضبت وإن لا عبك حزنت فإن غنجت شخرت وإن مشيت لهثت وإن أكلت ما شبعت وأنت أنقل من الجبال وأقبح من الخيال والوبال مالك حركة ولا فيك بركة وليس لك شغل إلا الأكل والنوم وإن بلت شرشرت وإن تغوطت بطبطبت كأنك زق منفوخ أو فيل ممسوخ إن دخلت بيت الخلاء تريدين من يغسل لك فرجك وينتف من فوقه شعرك وهذا غاية الكسل وعنوانه الخبل وبالجملة ليس فيك شيء من المفاحر وقد قال الشاعر:

ثقيلة مثل زق البول منتفخ  
إذا مشت في بلاد العرب أو خطرت  
أو راكبها كعواميد من الجبل  
سرى إلى الشرق ما تبدي من الهبل

فقال لها سيدها: احلسي ففي هذا القدر كفاية فجلست ثم أشار إلى الصفراء فقامت على قدميها وحمدت الله تعالى وانت عليه بالصلاة والسلام على خيار خلقه لديه ثم أشارت بيدها إلى السمراء وقالت: وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الثامنة والسبعين بعد الثلاثمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الجارية الصفراء قامت على قدميها فحمدت الله تعالى وأتنت عليه ثم أشارت بيدها إلى السمراء وقالت لها: أنا المنعوت في القرآن ووصف لوني الرحمن وفضله على سائر الألوان بقوله تعالى في كتابه المبين صفراء فاقع لونها يسر الناظرين فلوني آية وجمالي غاية وحسني نهاية لأن لوني لون الدينار ولون النجوم والأقمار ولون التفاح وشكلي شكل الملاح ولون الزعفران يز هو على سائر الألوان فشكلي غريب ولوني عجيب وأنا ناعمة البدن غالية الثمن وقد حويت من كل معنى حسن ولوني في الوجود مثل الذهب الإبريز وكم من مآثر وفي مثلي قال الشاعر:

لها اصفرار كلون الشمس مبهج  
ما الزعفران تحاكي بعض بهجتها  
وكالدنانير في حسن من النظر  
كلا ومنظرها يعلو من القمر

وسوف أبتدي بدمك يا سمراء اللون فإنك في لون الجاموس تشمنز عند رؤيتك النفوس إن كان لون في شيء فهو مذموم وإن كان في طعام فهو مسموم فلونك لون الذباب وفيه بشاعة الكلاب وهو محير بين الألوان ومن علامات الأحزان وما سمعت قط بذهب أسمر ولا در ولا جوهر إن دخلت الخلاء يتغير لونك وإن خرجت

ازدبت قبحاً على قبحك فلا أنت سوداء فتعرفي ولا أنت بيضاء فتوصفي وليس لك شيء من المآثر كما قال فيك الشاعر:

لون الهباب لون غبرتها  
فلما نظرت لها بالعين أرمقتها  
كالتراب تدهس في أقدام قصاد  
إلا تزايد من همي وأنكادي

فقال لها سيدها: اجلسي ففي هذا القدر كفاية فجلست، ثم أشار إلى السمراء وكانت ذات حسن وجمال وقد واعتدال وبهاء وكمال. لها جسم ناعم وشعر فاحم معتدلة القد موردة الخد ذات طرف كحيل وخذ أسيل ووجه مليح ولسان فصيح وخصر نحيل وردف ثقيل فقالت: الحمد لله الذي خلقتني لا سمينية مذمومة ولا هزيلة مهضومة ولا بيضاء كالبرق ولا صفراء كالمغص ولا سوداء بلون الهباب بل جعل لوني معشوقاً لأولي الألباب وسائر الشعراء يمدحون السمر بكل لسان ويفضلون ألوانهم على سائر الألوان، فأسمر اللون حميد الخصال، والله در من قال:

وفي السمر معنى لو علمت بيانه  
لياقة ألفاظ وغنج لواحظ  
لما نظرت عينك بيضاً ولا حمرا  
يعلمن هاروت الكهانة والسحرا

فشكلي مليح وقدي رجيح ولوني ترغب فيه الملوك ويعشقه كل غني وصلوك، مليحة ظريفة ناعمة البدن غالبية الثمن وقد كملت في الملاحه والأدب والفصاحة مظاهري ولساني فصيح ومزاجي خفيف ولعبي ظريف وأما أنت فمثل ملوخية باب اللوق صفراء وكلها عروق فتعسا لك يا قذرة الرواس ويا صداً النحاس وطلعة اليوم وطعام الزقوم، فضججك يضيق النفوس مقبور في الأرماس وليس لك في الحسن مآثر وفي مثلك قال الشاعر:

عليها اصفرار زاد من غير علة  
إذا لم تتب نفسي فإنني أذلها  
يضيق له صدري وتوجعني رأسي  
بلثم محياها فتقلع أضراسي

فلما فرغت من شعرها قال لها سيدها: اجلسي ففي هذا القدر كفاية، ثم بعد ذلك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة التاسعة والسبعين بعد الثلاثمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الجارية لما فرغت من شعرها قال لها سيدها: اجلسي ففي هذا القدر كفاية، ثم بعد ذلك أصلح بينهن والبسهن الخلع السنينة ونقطهن بنفيس الجواهر البرية والبحرية فما رأيت يا أمير المؤمنين في مكان ولا زمان أحسن من هؤلاء الجواري الحسان. فلما سمع المأمون هذه الحكاية من محمد البصري أقبل عليه وقال له: يا محمد هل تعرف لهؤلاء الجواري وسيدهن محلاً وهل يمكنك أن تشتريهن لنا من سيدهن فقال له محمد: يا أمير المؤمنين قد بلغني أن سيدهن مغرم بهن ولا يمكنه مفارقتهن، فقال المأمون: خذ معك إلى سيدهن في كل جارية عشرة آلاف دينار فيكون مبلغ ذلك الثمن ستين ألف دينار فاحملها صحبتك وتوجه إلى منزله واشترهن منه.

فأخذ محمد البصري منه ذلك القدر وتوجه، فلما وصل إلى سيد الجواري أخبره بأن أمير المؤمنين يريد اشتراءهن منه بذلك المبلغ فسمح ببيعهن لأجل خاطر أمير المؤمنين وأرسلهن إليه، فلما وصلت الجواري إلى أمير المؤمنين هياً لهن مجلساً لطيفاً يجلس فيه معهن وينادمنه وقد تعجب من حسنهن وجمالهن واختلاف ألوانهن وحسن كلامهن وقد استمر على ذلك مدة من الزمان، ثم إن سيدهن الأول الذي باعهن لما لم يكن له صبر على فراقهن أرسل كتاباً إلى أمير المؤمنين المأمون يشكو فيه ما عنده من الصبايات ومن ضمنه هذه الأبيات:

سلبتني ست ملاح حسان  
هن سمعي وناظري وحياتي  
لست أسلو من حسنهن وصالاً  
أه يا طول حسرتي وبكائي  
من عيون قد زانهن جفون  
فعلى الستة الملاح سلامي  
وشرابي ونزهتي وطعامي  
ذاهب بعدهن طيب منامي  
ليتني ما خلقت بين الأنام  
كقسي رمينني بسهام

فلما وقع الكتاب في يد المأمون كسا الجوارى من الملابس الفاخرة وأعطاهن ستين ألف دينار وأرسلهن إلى سيدهن فوصلن إليه وفرح بهن غاية الفرح أكثر مما أتى إليه من المال وأقام معهن في أطيب عيش وأهنأه إلى أن أتاهم هازم اللذات ومفرق الجماعات.